مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد8،العدد1 – مارس 2021

OEB Univ. Publish. Co.

مكانة اللغة في فلسفة إتيان بونوكونديلاك

Status of Language in the philosophy of Etienne BonnotCondillac

د. يامنة خالدي*، جامعة مستغانم، الجزائر.
aminatem@hotmail.fr

تاريخ التسليم:(2020/03/10)، تاريخ المراجعة:(2020/05/02)،تاريخ القبول:(2020/05/28)

ملخص :

يهدف هذا العمل إلى إثارة إشكالية تتعلق بمسألة من المسائل القديمة وتتمثل في أصل اللغة ومصدر المعرفة وتطورهما لدى النوع الإنساني عند فيلسوف الأنوار " اتيان بونوكونديلاك "الذي رد المعرفة كاملة إلى الإحساس بالاتجاه نحو

مبدأ واحد، هو العلاقة بين الأفكار والعلامات، حيث نحاول استقصاء أهمية اللغة لدى الإنسان من خلال نشأتها وتطورها، ثم ننتقل إلى علاقة اللغة بالتحليل لنوضح أن اللغة ليست انعكاسا للواقع، بل هي أداة تحليل ومعرفة، معتمدين على المنهج التحليلي التاريخي باعتباره يتلاءم وطبيعة الموضوع. وقد خلصنا في الأخير إلى أن اللغة تعتبر أساس تناقل الناس المعرفة المتراكمة والحجج وأسس التفكير،كما أن قوى العقل ما هي إلا إحساسات متحولة والعلم ما هو إلا لغة كاملة.

الكلمات المفتاحية: الإحساس، اللغة، الفكر، الكلام.

Abstract :

This work aims to raise the problem related to the issue of old issues and is the origin of language and the source of the knowledge and their development of the human kind when philosopher “Etienne Bonnot Condillac” who answered principle of one the relationship between ideas and signs. Where we are trying to explore the importance of the language of a person through its origin and development then we turn to the relationship of language to analysis to show that language is not a reflection of reality, but rather tools of analysis and knowledge.As for the curriculum, we have relied on the historical analytical method, as it fits with the nature of the topic .We have recently concluded that language is the basis for people to transfer accumulated knowledge, arguments and foundations of thinking just as the forces of the mind it is only senses mutant and science is only a full language.

Keywords: Sensation, Language, Thought, Speech, Knowledge.

* المؤلف المراسل: د.يامنة خالدي،الإيميل: aminatem@hotmail.fr

مقدمة :

مرت الفلسفة في تاريخها بمراحل متعددة، وشهدت مجموعة من الاتجاهات الفكرية نذكر من أهمها الاتجاه العقلي الذي ساد في فرنسا والذي حمل لواءه ديكارت، كما نبع الاتجاه الحسي وتطور تطورا ملحوظا من انجلترا بزعامة جون لوك، فاشتهرت هذه الفلسفة ثم انطلقت إلى جميع أرجاء العالم بوجه عام، وأوروبا على وجه الخصوص.

لقد ظهرت الفلسفة عند ديكارت تحمل طابع العقلانية، فشككت في كل ما هو حسي ورأت أن مصدر المعرفة هو العقل. لكن هذا الاتجاه ما لبث أن وضع موضع النقد في المدرسة الحسية الإنجليزية وعلى رأسها جون لوك ودافيد هيوم، فقد رأى أتباع هذه المدرسة أن جوهر الحقيقة يكمن في العالم الحسي وأن الإحساس هو أصل المعرفة و من المؤكد أن لوك قد لعب دورا بارزا في القرن الثامن عشر كما تزايد نفوذ العلم الطبيعي الذي عرف فيما بعد باسم الفلسفة الطبيعية، ثم إن الإنجازات التي تمت في مجال الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والتي بلغت أوجها مع نيوتن من خلال كتابهPrincipia كان لها أعظم الأثر على الفلسفة في القرن الثامن عشر،فقد عرف فولتير ومونتسكيو وكوست كمبشرين للفلسفة الانجليزية التي تقوم على العقل التجريبي والمعرفة العلمية العناصر الأساسية لفكر لوك ونيوتن. هذا التأثير المزدوج الذي أتى من إنجلترا أدى إلى تقسيم العلوم إلى علوم طبيعية وأخرى عقلية بمعارضتها لدوغمائية وميتافيزيقا القرن السابق، كما ارتبط القرن الثامن عشر في المجتمع الغربي بحركة التنوير وهي حركة سياسية، اجتماعية تهدف إلى تصحيح الأخطاء وتدارك النقائص الاجتماعية وتغير أخلاقيات المجتمع بالتركيز على فكرة الوعي التي تعد المنطلق في التغيير. كما أنه ارتبط بانتشار المعرفة العلمية، حيث أصبح الاتجاه الجديد هو الاقتداء بآراء العلماء بدلا من سلطة أرسطو والكنيسة.

من هنا، بدأ اهتمام علماء وفلاسفة الأنوار بالتحليل العقلي كما انصب اهتمامهم على التجربة والاختراع، إذ حظي فن التفكير والاستدلال بأفضل تقدم باستعمال اللغة، والحقيقة أنه لا يمكن تجريد البحث اللغوي من الصبغة الفلسفية، لذلك فلا مناص من تناول المشكلات اللغوية من زاوية الفلسفة، بحيث أنها تتسع للبحث اللغوي وتستوعبه.

لهذا، طرح مشكل أصل اللغة في القديم من طرف الفلاسفة الإغريق الذين اعترفوا وهم يناقشون مسألة العلاقات بين المفاهيم والمفردات التي تدل عليها، بوجود إما علاقة طبيعية بين الاسم والشيء وإما علاقة تواضعية، كما تم تناول فكرة الاصطلاح مرارا خلال القرن الثامن عشر وأسند ابتكار اللغة إلى العقل الإنساني أولا بصفة طبيعية تتمثل في التعبير بالهيئة أو التنغيم ثم بصفة اصطناعية أو منطوقة قابلة للتحسين، فمن خلال هذا التقديم المعرفي، يمكننا الحديث عن أحد أقطاب المذهب الحسي التجريبي، إنه الفيلسوف إتيان بونو كوندياكEtienne Bonnot Condillac الذي يعد مذهبه خروجا عن القاعدة الفكرية المتعارف عليها في تاريخ الفكر الفرنسي في مجتمع ألف التفكير واحترم العقل ومجده. كما توجهت فلسفته نحو الاهتمام بالبحث في أصل المعرفة الإنسانية ويقينها وحدودها، إذ أكد

على رد المعرفة كاملة إلى الإحساس، مجددا في دراسته الإدراك البشري بالاتجاه نحو مبدأ واحد هو العلاقة بين الأفكار والعلامات، فدراسة اللغة بالنسبة لكوندياك تؤيد رد المعرفة إلى الإحساس باعتبار اللغة الوسيلة للتغيير التي تعبر عن حاجياتنا وتساعد على تقدم العلوم، بل هي الوسيلة الأولى إلى العلم الكامل.

من هنا يمكننا طرح الإشكال التالي: بأي معنى من المعاني يمكن الحديث عن كوندياك كفيلسوف لغة ساهم بفكره في توضيح أهمية اللغة لدى الإنسان وعلاقتها بالعلم من خلال المنهج التحليلي؟

تسعى هذه الورقة البحثية إلى التركيز على جزء من فلسفة كوندياك الخاص بدراسة مصدر المعرفة وإشكالية أصل اللغة وعلاقتها بالعلم باعتبار أن كل علم جديد ما هو إلا إبداع للغة جديدة وذلك كله بتطبيق المنهج التحليلي. فالبحث في موضوع اللغة والتحليل في الفكر الأنواري عامة والتحليل عند كوندياك بالخصوص يحمل الكثير من العناصر الجديدة التي ما زالت في حاجة إلى المزيد من البحث الشاق والمتواصل. لهذا، كان من الأهمية بمكان استقصاء بعض النقاط التي أثارها كوندياك في فلسفته والإلمام بفحوى ما طرحناه، ومع ذلك نعتبرها تجربة تطل ولو من نافذة ضيقة على فكر القرن الثامن عشر عامة وإشكالية اللغة لدى كوندياك بوجه خاص.

نظرية المعرفة عند كوندياك:

إذا كان القرن الثامن عشر عصر التحليل والتجربة، فلا يمكن الإحاطة بفكر كوندياك دون الإلمام بالمبادئ العامة للمدرسة الحسية،التجريبية،حيث كانت التجربة هي القاسم المشترك لمعارضي أفكار "ديكارت" الإستناجية والفطرية ومن تم يعتبر كوندياك الوريث الشرعي لهذه المدرسة.فكان من الطبيعي أن تبدأ الحركة التجريبية ضد فلسفات العقل بتقويض الأساس الذي تقوم عليه، ألا وهو الاعتقاد بوجود عدد من المبادئ الأولى للمعرفة في العقل، هي مبادئ فطرية، وما على الإنسان إلا أن يسلك المنهج الصحيح لاستخلاصها منه،إذيعتبر جون لوك (1632–174) خير معبر عن المدرسة الحسية التجريبية الإنجليزية، حيث انصب اهتمامه على البحث في أصل المعرفة الإنسانية، ويقينها وحدودها من خلال مؤلفه الرئيسي "مقال في الفهم البشري"، مؤكدا على أن العقل صفحة بيضاء « tabula rasa »

ولعل هذا الرأي نجد مثله عند كوندياك الذي رفض الأفكار الفطرية، حيث خرج بمذهبه الحسي عن تقاليد الفكر الفرنسي في احترام العقل والفكر، فكان يحذو في ذلك حذو لوك في مواضيع كثيرة من فلسفته، إلى أن اتجه بها اتجاها حسيا خالصا.وقد اعترف كوندياك بنفسه بأنه "مدين لأفكار جون لوك والمذهب التجريبي وقد ظهر ذلك جليا من خلال مؤلفه "العمدة" مقال في أصل المعارف الإنسانية" (عباس، 1996، ص 25).

يبحث كوندياك في تحليله لمعارفنا عن مصدرها لعزل العناصر أو الأفكار البسيطة، فهو يرى كما يرى لوك أن "الإحساس هو مصدر العمليات العقلية، فالأنا حسب رأيه ليست مادة مفكرة موجودة في حد ذاتها ولكن هي تتابع وتحول إحساساتنا"(Bertil, 1991, p217) ، فكان أن أحدث ثورة

ميتافيزيقية على عقلانية القرن السابع عشر والذي يرفض قطعيا أن يكون العقل معطى فطري، حيث "أننا –فيما يرى كوندياك– لا نتبين كيف يمكن للأفكار والمبادئ التي نجدها في أنفسنا أن تشق طريقها إلينا"، ومن ثم يجب اكتشاف تكون هذه الأفكار (Condillac, 1966, p13) .هذا من جهة، ومن جهة أخرى،ينتقد كوندياك المذاهب العقلانية للقرن السابع عشر في نقطة انطلاقها بالذات، فقد درجت العادة على الإسناد إلى العقل كما إلى مجموعة من المبادئ اليقينية، وكما لو أنه معطى لا يجوز بحال من الأحوال تجاوزه، وآية ذلك أن العقل تكون فينا قبل كل تفكير، وتلك هي غلطة الفلاسفة الكبرى، ذلك أن أخطاءنا تتأتى من كون أفكارنا أسيء صنعها، والسبيل الوحيد إلى تصحيحها هو إعادة صنعها من جديد (برهييه ، 1983، ص 92)، كما لا يكتفي باستعارة أفكار لوك، بل ويتناولها تنقيحا وتطويرا، ويأخذ على لوك أنه فرق بين الإحساس والتفكير،و لم يدرس عملية التفكير دراسة متقصية تتناول كل جوانبها، لذا يغدو التفكير عند لوك موازيا للإحساس ومصدرا معرفيا لا يقل عنه أهمية.

إلا أنه على النقيض من لوك، يبرهن كوندياك أن التفكير ليس أصلا مستقلا، إنه ينبع من الأحاسيس ويكون فطريا، بل يكتسب من خلال التجربة فقط، فيكون "الإدراك وأفعال الانتباه والأحكام وأفعال الإرادة ترجع جميعها إلى الأحاسيس بما في ذلك الرغبات والأهواء" (مجموعة من الأساتذة السوفيات، 1976، ص 303). هذا، ويذهب كوندياك في حسّيته إلى أبعد من لوك، إذ أنه يقصر التجربة على الإحساس الظاهري ويستغني عن التفكير باعتبار الإحساس الظاهري يكفي لتوليد جميع القوى النفسية "لأن أقل قدر من الملاحظة يجعلنا ندرك أن رؤيتنا للضوء والألوان والجوامد وغيرها من الإحساسات تكون كافية لإعطائنا كل الأفكار اللازمة عن الأجسام" (Condillac, 1790, p108) . أما الاعتماد على البداهة، أو على الفطرة، ليس له إذن ما يبرره، و ليست الطبيعيات الديكارتية بأكثر توفيقا عندما نتحرى عن مبادئها في فروض حول البنية الآلية للأشياء، فالفكر لا يستطيع أن يضرب على غير هدى و هو يتخيل تلك الفروض كلها.

هكذا، يشن كوندياك هجوما على من يتشيعون إلى نظرية الذهن، ويسلك مسلك السيميائيات التجريبية والحسية في تصور العلاقة بين اللغة والفكر، وملكة النفس لها من القدرة ما يجعلها تضفي الطابع السيميائي على الأشياء عندما تستدعيها بواسطة العلامات أو تستدعيها إلى الوجود عن طريق سلطة التسوية (يوسف ، 2005، ص 70)، فكيف نفسر ذلك؟ .

علاقة اللغة بالفكر:

لقد انصب التفكير الفلسفي في القرن الثامن عشر وبالتحديد في المجال اللغوي على دراسة أصل اللغة وعلاقتها بالفكر، بيد كان لها منزلة خاصة في نسقية كوندياك الذي وسمها بميسم النزعة التجريبية، حيث أن النظرية الكوندياكية أحدثت انقلابا تاما في هذه العلاقة وهذا مقارنة مع التفسير البورروايالي port royal، ففن الكلام يؤدي إلى فن التفكير، إذ لم يعد الدور الرئيسي للغة في قول شيء بل في التحليل.هذه الفكرة الأساسية استخدمت من طرف "هردر" Herderوطورها فيما بعد اللساني "فون

هومبولدت" Humboldt الذي اعتقد أنه صاحبها. وبذلك يحدث كوندياك قطيعة مع العقلانية الديكارتية.

إن الفكر هو واحد بالنسبة لكل الأفراد لأن مصدره الإحساس، وطريقة تحليله وتركيبه هي نفسها الطريقة المطبقة داخل اللغات، إلا أن الاختلاف يكمن في العلامات لأن لكل لغة قواعد خاصة بها، وقد وصل كوندياك في الأخير إلى استنتاج اصطلاحي وهو أن النحو هو العلم الذي يدرس مبادئ وقواعد التحليل، فهو نحو عام إذا درس القواعد المعينة في كل اللغات، ونحو خاص إذا درس القواعد الخاصة بتحليل لغة معينة، فدراسة النحو إذن هي دراسة الطرق التي يتبعها الأفراد في تحليلهم للفكر (Bertil,1991, p 219)، مما يؤكد أن الفكرة البسيطة مع العلامة الثابتة المرتبطة بها،هي عنصر لا يستدعي ولا يتطلب، بحكم طبيعته بالذات و بصرف النظر عن التجربة و الاستعمال أي ارتباط بفكرة أخرى بعينها: فتطور الفكر سيتم بفضل تنوع الارتباطات التي سنقيمها طبقا للنفع والفائدة. " فما من شيء إلا ويساعدنا على التفكير، ولب الأمر أن نعرف كيف تكون تلك الارتباطات طبقا للهدف الذي ننشد وللظروف التي نوجد فيها ". (Condillac,1970,p 190)، مما جعل كوندياك يمضي في بحثه عن علاقة اللغة بالفكر إلى أبعد مما انتهى إليه علماء القرن السابع عشر بتقريرهم أن اللغة صورة للفكر بـ "اقراره أن الأفكار المجردة هي نتائج لعملية يتم بها ابتداع العلامات اللغوية، وقد كان عليه أن يقول بوجود عملية طبيعية تنشأ عنها لغة من علامات عرفية أي من تجربة بدائية عير عقلية" (حسن، 1990، ص 96)، وهكذا اضطر إلى أن يحصر نفسه في البحث في أصل اللغة.

اللغة بين النشأة والتطور:

إن موضوع أصل اللغة أصبح القضية المركزية لفكر عصر الأنوار، بيد أنه درس كموضوع فلسفيلا كقضية تاريخية، فالباحث يدرس نشأة اللغة ليلقي الضوء على طبيعتها، ومن ثمة على طبيعة الفكر، فبتفسير أصل شيء من الأشياء يفسر المرء طبيعته، ولهذا "تركّز تفكير علماء القرن الثامن عشر على ما يمكن أن يسمى الأصل الإيثيمولوجي الفلسفي، وهو محاولة تفسير العلامات اللغوية والأفكار المجردة بتصور أصولها في الإشارة والحدث والإحساس" (المرجع نفسه، ص 97)، فقد كان التفكير آنذاك متجها بحماس للمسائل التاريخية، رغم أن هذا كان بطريقة غير نظامية بعض الشيء، بطرح مجموعة من الأسئلة المختلفة:ماذا يقع بين بدايات اللغة الإنسانية وبين صورتها الحالية المحكمة بشكل واضح؟ وكيف يمكن لبذور اللغة، كما عرفت في العصور التاريخية أن تكون بذرة فيما قبل التاريخ الإنساني؟ ولقد بحث الناس أيضا عن تفسيرات تاريخية للصيغ الملاحظة للكلمات وفقا للمبادئ العامة المفترضة للتطور اللغوي، إلا أن هذا كان بعيدا نوعا ما عن الدراسة التاريخية النظامية للعائلات الواضحة المحددة للغات(روبنز، 1997، ص 245).

هذا، والحال إن محاولات التفسير المدروسة بشكل جدي لأصل اللغة وتطورها عند النوع الإنساني الذي نظر إليه باعتباره نوعا مستقلا، قد وحدت فلاسفة المذهبين الإمبريقي والعقلي، اللذين ميزا القرن

الثامن عشر وما قبله، مع هؤلاء الذين كانوا يؤلفون إلى حد كبير في إطار الحركة الرومانسية في سنواتها الأخيرة وعند تحول القرن، وهذا ليس مثيرا للدهشة ما دام عن طريق اللغة يتناقل الناس المعرفة المتراكمة والحجج وأسس التفكير، وهو ما كان يعتقده بتقدير عال جدا رجال التنوير الفلسفي، وفي الوقت ذاته، وبشكل متساو يعبر الناس عن طريق اللغة عن العواطف والأحاسيس الفردية التي أكد عليها الرومانسيون تأكيدا عظيما (روبنز، 1997، ص 246).هذا، والأسماء المعروفة آنذاك تمثلت في كوندياك، جون جاك روسو، وجوهان هردر، فحسب رأيهم "لا توجد لغة أصيلة كاملة وإنما توجد ترديدات لأصوات (tâtonnements) ، والتي تؤدي وبطريقة تدريجية إلى لغة إنسانية، فإذا لم يكن مصدر اللغات إلهيا فيجب الرجوع إلى المنبع الرئيسي للكلمات الأولى لدى الإنسان"(Utaker,2002, p25) .

إنها مهمة صعبة ما دامت تبدو كمصدر لكل ما هو إنساني، ثم إن القول بأن على الفكر الإنساني إدخال اتفاقية مؤداها أن الأصوات الصادرة عن الإنسان لها دلالات، قول لا معنى له، وقد أشار أفلاطون إلى ذلك سابقا في محاورة الكراتيل cratyle موجها كلامه إلى سقراط: "في رأيي هذا هو الشرح الصحيح فيما يخص هذا الموضوع، إنها قوة خارقة هي التي أعطت الأشياء أسماء وهي بالضرورة صحيحة"(Platon,1967,p167) .ولتفادي هذه النتيجة ابتعد كل من كوندياك وروسو وهردر عن الفكرة القديمة القائلة بإعطاء الأسماء عن طريق محاكاة الطبيعة، بل المهم في كل هذا نجدهم يؤكدون على أن مصدر المعرفة لا يبدأ من الأسماء، بل من شيء سابق عليها، يتمثل في الصراخ والحركات والتعبيرات، سواء كانت مجازية أو استعارية.(Utaker,2002, p 27)

لقد ناقش كل من روسو وكوندياك أصل الكلام الإنساني ونشأته المبكرة، وكانت تصوراتهما عن أصل اللغة جد متشابهة، فاللغة قد نشأت من خلال الإيماءات المباشرة والتقليد والصرخات الطبيعية، ولكن بما أن الإيماءات كانت أقل كفاءة كإشارات اتصالية فإن العنصر الصوتي أصبح سائدا في اللغة الإنسانية عندما ربطت دلاليا سلاسل الأصوات المعينة بالموجودات والظواهر وعندما زادت قوة التفكير الإنساني، وقد تصور كوندياك مرحلة مختلطة كانت فيها صيغ الفعل المنطوقة تصحب بإيماءات رموز صوتية تنطق بعد الفعل نفسه، وأخيرا التصقت هذه الرموز بالفعل، وقد طرح روسو مواقفه مقصودة تقريبا ليجعل هذا التبدل من الإيماء إلى الكلام على غرار العقد الاجتماعي (روبنز،1997، ص 247)، كما بين كوندياك أن المفردات المجردة والتركيب القواعدي قد تطورت عن مفردات حسية خاصة سابقة مع قليل من التمييزات أو القيود القواعدية وقد اعتبر أن " الاعتماد على التقابل النغمي بطريقة اللغة الصينية بقاء لملمح بدائي، وقد وجه الاهتمام أيضا لتنغيم الكلام الخطابي في العصور القديمة الكلاسيكية، واعتبر الشعر مصدره الغناء بوصفه الصورة الأدبية المبكرة للغة"(روبنز،1997، ص248).

هذه النقطة ستكشف مواقفهما الفلسفية عن نفسها، فلقد قارن كوندياك بشكل محايد بين الخطابة اللاتينية والخطابة الفرنسية ورفض أن يصدر أحكاما قيمية فيما بين المزايا الأسلوبية اللاتينية بترتيب

كلماتها الحر قواعديا، وبين الفرنسية ببنيتها الأكثر تحليلية، وترتيب كلماتها الأكثر ثباتا، أما روسو، على الجانب الآخر، فقد كان يستمتع بالحيوية والانفعالية المفترضين في المراحل الأولى من اللغة الإنسانية عندما لم يكن الشعر قد غمره برود التفكير، وقبل أن تحل الكتابة غير القادرة على الإشارةإلى اختلافات النبر وطبقة الصوت ولتنوعات الصوتية للكلام محل دقة التعبير، وقبل أن تضعف حيوية اللغة نفسها، (روبنز، 1997، ص249)،وروسو الذي استطاع أن يحلم بالبدائية النبيلة التي لم تفسدها الملكية والحكومات المدنية، استطاع أيضا أن يكتب عن لغات ملائمة للحرية، وهذه " اللغات تكون رنانة وايقاعية وتناغمية، يمكن سماعها وفهمها عن بعد، أما لغاتنا فهي مصممة لثرثرة الصالونات" (كريسون، 1988، ص139).

أما كوندياك فقد تصور حالة رجل أو امرأة لا ينطقان، وبيّن كيف أن الظروف تؤدي بهما بصورة طبيعية الى ما يشبه الكلام: فإذا شعر أحدهما بهيجان أو عاطفة أو حاجة قوية أو غير ذلك من الدوافع فإنه يأخذ في الصراخ و القيام بحركات وإشارات مختلفة، فإذا تكررت نفس الحركات والأصوات وارتبطت في ذهن المستمع بالأشياء المومأ إليها، فإن الأصوات لن تلبث أن تحل محل الإيماء باليد وأن تغنى، ولئن كانت قدرة هذين الشخصين على تنويع الأصوات ممدودة، فإن أولادهما لا شك أقدر على الاتيان بمختلف الأصوات اللغوية، وهكذا، فبالتدريج تتألف مفردات، ويتزايد رصيدها جيلا بعد جيل، إلى أن تتشكل من مجموعها اللغة (بن عيسى ، 2005، ص26).

لقد استخدم كوندياك اللغة بشكل أساسي في فلسفته نظرا لأهميتها بعد أن تأكد أنها بشكلها وعناصرها البسيطة تساعد على اكتمال إدراك الفكر الإنساني، ولتفسير نظريته في الرموز واللغة يذهب إلى أبعد من ذلك مؤكدا أن استعمال الرموز هو المبدأ الذي تنمو وفقه نبتات أفكارنا كلها باستعمال التحليل (Théma Encyclopédie, 1994, p383) فكيف ذلك؟

التحليل كمنهج لغوي في العلم:

يبرز كوندياك أهمية اللغة عندما يشير إلى المعاني المجرّدة باعتبارها ألفاظا، بحيث تصبح اللغة هي الوسيلة الوحيدة لتخيلها، فالاسم هو أصل المعنى المجرّد، بحيث " يصبح الاسم هو أصل معاني، أجناس وأنواع، وبالتالي نعجز عن الاستدلال ما لم نتمكن من استيعاب اللغة وتحديد مصطلحاتها" (عباس، 1996، ص44)، ثم يقسم كوندياك المعاني إلى بسيطة، ومركبة ويستعمل التحليل للكشف عن عناصرهما ليؤكد على أن "الطبيعة تخلو من الماهيات والأنواع والأجناس وتبقى الألفاظ الكلية هي الوسيلة التي تعبر عن وجهات نظر الذهن عندما يدرك التشابه والتمايز بين الأشياء" (عباس، 1996، ص45)،ليخلص إلىأن موضوع اللغة من الموضوعات الهامة في المنطق وأن اللغة تمثل المناهج التحليلية، بحيث يأتي موضوع لغة الحركة langage d'action في مقدمة الموضوعات التي يعرض لها، فما هو معناها؟

إن لغة الحركة، تعني العناصر المكونة للأعضاء التي منحها الله خالق الطبيعة وهي فطرة و سابقة على الأفكار (Condillac, 1984, p396)"،كما لاحظ كوندياك أن تطور أفكارنا ونموها وكذلك ملكاتنا لا يتم إلاّ بواسطة " علامات لا يمكننا الاستغناء عنها، كما لاحظ أن طريقتنا في التفكير لا يمكن تصحيحها إلاّ بتصحيح اللغة، وأن كل الفن يتلخص في إجادة لغة كل علم، وقد أكد على أن اللغات الأولى في أول نشأتها قد أجيد صياغتها، لأن الميتافيزيقا التي أشرفت على وجودها لم تكن علما مثلما هي اليوم، وإنما غريزة منحتها الطبيعة لنا"، (Condillac, 1948, p 397)، فكان لابد لوجود لغة معينة (لغة الفعل) تسبق أفكارنا من أجل تحليله، ليكون تكويننا الخارجي حسب كوندياك مؤهلا لتمثيل ما يجول بداخلنا، فهو التعبير عن أحاسيسنا وأحكامنا، إذ ليست خاصية الفعل التحليل، كما أنه أي الفعل لا يمثل الأحاسيس إلا لكونه هو الأثر (l'effet) ، فلغة الفعل تمثل إجمالا كل ما نحسّه في آن واحد، والأفكار المتزامنة في ذهننا هي متزامنة طبيعيا في هذه اللغة، بينما كثرة الأفكار المتزامنة لا يمكن أن تكون واضحة إلا إذا تعودنا على دراستها الواحدة تلوى الأخرى.

إن الفضل يعود إلى هذه العادة التي مكنتنا من تقسيم الأفكار بصفة سريعة وسهلة أدهشت الذين لم يكتسبوا هذه العادة، فلماذا نجد أن الموسيقي يستطيع التمييز بين الإيقاعات وهي تعزف وتسمع في آن واحد؟ "لأن أذنه تمرنت على سماع تلك الإيقاعات وتذوقها" (Lefèvre, 1966, p22) ، فيبدأ الأفراد بلغة الفعل بمجرّد الإحساس وعن غير قصد ولهذا، فهم ينقادون وراء الطبيعة التي هي المعلم الأول.على هذا النحو، تصبح لغة الحركة بالنسبة لنا هي لغة التحليل، فهي تحلل أفعالنا التي تكون لوحة فكرنا، كما تحلل فكرنا ذاته بواسطة الاشارات الأولية " لأن– فيما يرى كوندياك– لغة الحركة هي ما ترجع اليها جميع أفكارنا، لكن الإنسان يسد الطريق أمام الحركة أو الإشارة ويستبدلها بلغة الألفاظ ويتكلم بالصوت فحسب قبل أن يتروى(Condillac,1970,p24) "

هكذا، فإن اللغات تبدأ قبل الشروع في الفعل وتصبح بعد ذلك المنهج التحليلي الذي يخدم المعرفة تماما مثل لغة الإشارات، " فلا شك في أن اللغة هي وسيلتنا للتغيير، وهي منهج التحليل الذي يعبر عن حاجاتنا الأولية والضرورية، فهي تساعد على تقدم العلوم، وهي الوسيلة الأولى للعلم الكامل" (Ibid,p28)، والتحليل، من هنا، هو المنهج الحقيقي الوحيد الذي يعمل على ترابط الأفكار وافتراض الكلمات التي تحدّد، وتقارن وتربط الأفكار .لكن كيف للعلامات التواضعية أن تخرج من العلامات الطبيعية؟ وكيف للشعوب أن تؤسس لغتها؟

إن العلامات الحسية المرتبطة بالإدراكات البسيطة تولد العلامات المجرّدة وهي رموز لأفكار مركّبة، حيث يصف كوندياك لغة الفعل بأنها لغة الحاجات والانفعالات المعبّر بها بتلقائية بالرجوع إلى المنبع أي حياة الحيوانات والأطفال والبدائيين (Lefèvre, 1966, p24) ، ومن ثم فهذه اللغة تتكون من الصراخ، والإشارات ومن حركات الرأس والجسم، لكن التقدم الفاصل سيبدل العلامات الطبيعية بالعلامات الاتفاقية ويعطي الموضوعات أسماء تقدم بطيء يستلزم جهد أجيال بأكملها، هذه اللغة بالدرجة الأولى وظيفة

المجتمع، فالحاجة إلى الاتصال وإمكانية التفاهم والتجارة المتبادلة، كلها مميزات تخص الإنسان (Ibid,p25) إلا أن لغة الكلام لم تحل محل لغة الفعل، لقد امتزجت ببعضها بعض داخل رمزية مركبة من حركات وكلام وصور كما هو الحال بالنسبة للحضارة الشرقية. ليس هذا فحسب ، بل إن اللغة المنحدرة من لغة الفعل تركت بصمات داخل النحو والقواعد. "فالأسماء الأولى فيما يرى كوندياك – كانت مرتبطة بالأشياء التي تلبي حاجياتنا، بمعنى الموصوفات ثم الصفات وبعد ذلك الأفعال، فالضمائر، ولهذا نجد أن البدائي ينطق الشيء قبل الفعل، والفعل قبل الموضوع، إذ يقول مثلا " الفاكهة يريد أحمد" وليس يريد أحمد الفاكهة " (Condillac, 1970, p80)

لاحظ كوندياك لدى الشعوب الشرقية أن حواراتها تميزت بالحركة، واعتبر الرقص والغناء شكلا من أشكال اللغة، مما جعله يخص الموسيقى بالذكر في كتابه " المقال" ويسرد تاريخها باعتبارها جزءا لا يتجزأ من اللغة، كما بحث صلتها بعروض الشعر ونظامها الدياتونيDiatonique الذي هو انتظام القوة بين نغمتين في علم الموسيقى. ومن ثم كانت الانحناءات والانعطافات تعد طبيعية في مخارج الألفاظ، إذ " نشأت أول فكرة عند تآلف الأنغام عندما طربت الأذان، بالصدفة، لتوالي بعض المقاطع اللفظية واستعادتها... فلم يكن يحظى ببال احد فكرة فصل الموسيقى عن الكلمات، فبدون الكلمات لم تكن الموسيقى تبدو ذات معنى".(Ibid.p217) ، كما طرأت على الموسيقى تحسينات كثيرة حتى تساوت مع الكلمات في درجة التعبير وحاولت بعد ذلك تجاوزها. عندئذ، التفت إلى قدرتها وحدها على التعبير ولم يعد فصلها عن الكلمات يمثل ضربا من الجنون. فالمعاني التي كانت تولدها الأنغام وهي تصاحب الكلمات كانت قد أعدت العقول لتقبل فكرة انفصالها واستقلالها.

لقد كان الإغريق–فيما يرى كوندياك– أكثر إحساسا لخصوبة ونشاط خيالهم. والخيال يكون أخصب عند أولئك الذين لا يستعملون علامات أو إشارات نظام معين وبالتالي تسود لغة الحركة بين أفراد هذا الجمع، تلك اللغة التي تشحذ الخيال (Ibid. p219) ، هذا وقد قارن كوندياك اللغة اليونانية باللغة الفرنسية، هذه الأخيرة بسيطة في تكويناتها وفي طريقة نطق كلماتها إذ لا تتطلب إلا تدريب الذاكرة والاكتفاء بالإشارة عن الحديث عن الأشياء مما يجعلها أقل استجابة، و بالتالي عدم خصوبة الخيال، مقارنة بالإغريق الذين هم أكثر حساسية لخصوبة و نشاط خيالهم، بالإضافة إلى عدم استعمالهم لعلامات أو إشارات نظام معين، و بالتالي تسود لغة الحركة بين أفراد هذا الجمع ، "تلك اللغة التي تشحذ الخيال لأن حركة واحدة قد تساوي جملة بالغة الطول لمن يألف هذا الأمر. ولنفس الأسباب نجد أن اللغات التي تحاكي هذه اللغة تكون على شاكلتها في درجة الثراء و الحيوية. وعلى النقيض من ذلك نجد أن اللغات التي تبتعد عنها تفقد حيويتها." (Ibid,p220)

لهذا، كرس كوندياك جهده لدراسة خصائص الكلمات واشتقاقاتها والتي تشكل أقسام الخطاب، وقد افترض مثلا أن حروف الجر في الأصل أسماء لإشارات تدل على الاتجاه. وهذا مثال للجذر (Bar) :تدل (Bar) في كل استعمالاتها على الدفاع Défence أو الدعم أو التحصن والتقوي، ومن

ثم تشير (Born) إلى المبنى من حوائط مسقوفة تحفظ فيها الحنطة أو غيرها لتحميها من المطر أو السرقة. وتشير (Baron) إلى رجل مسلح قوي مدافع و(Barge) إلى قارب قوي، و(Bagein) إلى عهد موثق أو اتفاقية مدعومة، و(Bark) إلى لحاء الشجرة الذي يحميها. (Condillac,1970,p222)

هذا المثال يوضح القضايا التالية:

-أن دراسة اللغة قائمة على مفهوم التمثل (Représentation) . فالكلمات تعد علامات تمثل الأنواع أو العناصر الأساسية للتجربة التي تعبر عنها مواقف كانت أو أشياء أشخاصا.

-على المحلل، لكي يلقي ضوءا على الفكرة، أن يدرس العلامات واشتقاقها. فكلمة (Baron) ليست وحدة عرفية اعتباطية فحسب، بل علاقة بين الشكل والمعنى، لأن اشتقاقها المفترض من جذر أولي يعد في ذاته أساسا طبيعيا لها، ولكل الكلمات الأخرى التي تشترك معها في الجذر بشكل عام. و يفترض الإجراء الايثمولوجي أن الكلمات في لغتنا لها أساس عقلي يمكن دراسته من خلال الجذر الأولي.(Kristéva,1981,p175)

-إن عنصر الزمن كما هو الحال عند علماء القرن الثامن عشر لا على أنه مركز الاهتمام للعمل أو الإجراء التاريخي ، بل على أنه محاولة مفترضة للتفسير، وهذا فتح الطريق لبحث تاريخي أكثر فهما للتطور اللغوي.

-إن العلامات التي درست مفردة أو في مجموعات مفردة توضح طبيعة العقل والعمليات العقلية، والربط بين اللغة والعقل هنا لن يكون من خلال البنية المنطقية لنحو القرن السابع عشر المنطقي، ولكن من خلال مفاهيم طبيعية تمثلها الجذور الأولية.

من هنا، بدا لعلماء القرن الثامن عشر " أن العلاقات بين الجذور الفعلية للغات القديمة علاقات كبيرة يؤمل أن تقودنا إلى افتراض أصل مشترك لهذه اللغات." (حسن، 1999، ص 97)، في المقابل، نجد أن الكتابة كانت صورية، ونجدها عند بدائيي المكسيك وكندا، ثم أصبحت استعارية مع المصريين والصينين، وبعدها تطورت الى ان صارت مجردة وثابتة بظهور الحروف مع الحفاظ على شكلها للتعبير عن الأسرار الغامضة وبالتالي أصبح لكل مجتمع كما لكل انسان لغته الخاصة توحي عن طبعه. فهناك إذن ما يسمى بخصائص اللغات (le génie des langues) التي يطورها كبار الفلاسفة والكتاب بعد الاستفادة منها، لهذا نجد إن العلوم والفنون لا تزدهر بنفس المستوى في كل البلدان وفي كل العصور (Lefèvre,1966,p25)

هكذا كانت دراسة كوندياك للغات، فلكل شعب بطابعه الخاص والمحدد بالمناخ وطبيعة حكمه، لغة خاصة، كما طرح مبدأ اختلاف اللغات وتطورها بالرجوع الى اساس واحد هو مبدأ العلامات .فمن خلال هذا المبدأ النظري يقوم النحو وبدور فعال لمنحه وصفا دقيقا والتأكيد عليه.

خاتمة:

لقد تميز كوندياك كما تجلى من خلال مسار هذا البحث بتشبثه بالإحساس كمصدر للمعرفة وأساس هذه الفرضية هو أن كل أنواع المعرفة الإنسانية تستمد ظاهريا من انطباعات الحس والعمليات التي يجريها العقل عليها بالتجريد والتعميم عن طريق اللغة، و تظهر صيغتها الصارمة في اعتراض كوندياك التام على وجود أي أفكار مغروسة في العقل الإنساني سابقة على التجربة. كما اتسمت فلسفة كوندياك باتجاهها العملي وبتوجيهها قدرا كبيرا من الاهتمام إلى اللغة وإلى استخدام العلامات في تكوين أفكارنا، هذا إلى جانب أن المعرفة لا تنمو في أحضان الطبيعة ولا تمثل ظاهرة أو علة أو معلولا ، تخرج عن كونها فلسفة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد أكد كوندياك أن فن التفكير يرتد إلى فن إتقان الكلام ، وهذا يعني أن اللغة والفكر مرتبطان أشد الارتباط، لأن اللغات بالنسبة لكوندياك هي أدوات تحليل و معرفة. فبدون تسميات لا يكون لدينا أفكار مجردة، إذ بفضل اللغة يمكن للعقل أن يصنف الأشياء، فلا يوجد في الطبيعة لا الأنواع ولا الأجناس. وهذا منحى فلسفة كوندياك في اللغة، فقد كان يسعى لتشكيل لغة التفاهم خاصة لغة الكلام التي لم تحل محل لغة الفعل، لقد امتزجت ببعضها بعض داخل رمزية مركبة من حركات وكلام وصور، كما هو الحال بالنسبة للحضارة الشرقية. والحق أن الفائدة التي يمكن أن نجنيها من فلسفة كوندياك هي في اعتباطية العلامة اللغوية التي ترجع إلى المخيلة التي زودت الفكر بعلامات لم نتصورها وإلى الانتباه الذي ربط العلامة بالفكر.

قائمة المراجع

أولا – المراجع باللغة العربية :

– بريهيه، ايميل.(1983).تاريخ الفلسفة: القرن الثامن عشر، تر: جورج طرابيش. بيروت. دار الطليعة للطباعة و النشر.

– بن عيسى، حنفي.(2005).محاضرات في علم النفس اللغوي . بن عكنون. الجزائر.ديوان المطبوعات الجامعية.

– حسن محمد، عبد العزيز.(1999).دي سوسير: رائد علم اللغة الحديث. القاهرة. دار الفكر العربي.

– روبنز.هـ.ر.(1997).موجز تاريخ علم اللغة في الغرب.تر : أحمد عوض. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

– عباس عبد المنعم،رواية.(1996)،المذهب الحسي عند كوندياك. بيروت .دار النهضة العربية.

– كريسون،أندريه.(1988).روسو. تر : نبيل صقر. بيروت. منشورات عويدات.

– مجموعة من الأساتذة السوفيات.(1976).موجزتاريخالفلسفة. تع: توفيق إبراهيم سلوم. ج1.دمشق.دار الجماهير العربية.

– يوسف،أحمد(2005).السيمائيات الواصفة: المنطق السيميائي وجبر العلامات. بيروت، الدار العربية للعلوم.

ثانيا– المراجع باللغة الأجنبية :

- Condillac ,Etienne Bonnot. (1984).la logique, Paris. PUF.
- Condillac, Etienne Bonnot.(1970). Essai sur l'origine des connaissances humaines. Genève. éd Stalkine Reprints.
-Condillac, Etienne Bonnot.(1991).traité des systèmes .Paris. Bloud.
-Kristeva ,Julia(1981). Le langage, cet inconnu : une initiation à la linguistique .Paris .éd du Seuil.
-Lefèvre ,Roger (1996). Condillac ou la joie de vivre. Paris.éd Seghers,
- Malberg, Bertil(1991).Histoire de la linguistique de Sumer à Saussure. Paris. éd, PUF .
-Platon.(1967) .Cratyle ,tr :Emile Chambray .Paris .éd Flammarion.
-Utaker,Arild.(2002). La philosophie du langage :Une archéologie Saussurienne. Paris. éd PUF.